

## ولادة ثالثة لذات مخبأة، سوزان سونتاج بين الشطحات الوجودية والتأملات النقدية *A third birth of a hidden self*

*Susan Sontag between existential excursions and critical reflections*

وسيلة مجاهد

<sup>1</sup> جامعة الجيلالي الياابس سيدي بلعباس (الجزائر)، wassilasilla94@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/02/10

تاريخ الاستلام: 2024/01/10

### ملخص:

لا يخفى على أحد أنّ سوزان سونتاج كانت ومازالت من أكثر الناقداة المثيرات للجدل في أمريكا، وقد بدأ العالم العربي ينفث على أعمالها من خلال بعض الترجمات. تحمل سونتاج ذاتا مخبأة ومرجأة تحتاج دوماً للتنقيب بغية الكشف عن جوانبها الخفية، وعن تطلعاتها النقدية كونها ناقدة، لذلك ارتأينا في ورقتنا البحثية هذه تتبع مسارها الوجودي وربطه بتأملاتها النقدية في كل من الكتابة والقراءة والتصوير الفوتوغرافي، من أجل الوصول إلى نتائج تفسر طريقة اشتغالها نقدياً على بعض الأعمال الفنية. كما لن نغفل أثر مرضها على حياتها وطريقة تفكيرها، كل ذلك وفق مقارنة تأويلية تفكيكية، تروم بلوغ التخوم في أعمالها، وتحلم بقراءات متعددة ومختلفة لأعمالها النقدية.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة؛ التأويل؛ الفوتوغراف؛ الكتابة؛ المرض؛ سوزان سونتاج.

\*\*\*

### Abstract:

It is no secret that Susan Sontag was and still is one of the most controversial critics in America, and the Arab world has begun to open up to her works through some translations. Sontag carries a hidden and deferred self that always needs to be explored in order to reveal her hidden sides, and her critical aspirations as a critic, so we decided in this research paper to trace her existential path and link it to her critical reflections on both writing, reading, and photography, in order to reach results that explain the way she works critically on Some artwork.

We will also not ignore the impact of her illness on her life and way of thinking, all according to a deconstructive interpretive approach, aiming to reach the limits in her works, and dreaming of multiple and different readings of her critical works

**Keywords:** metaphor; Interpretation Photography; Writing; the disease; Susan Sontag.

## ١. مقدمة:

إنّ من يرغب في الحديث أو الكتابة عن سوزان سونتاج يجد نفسه أمام متاهة يبحث عن باب لولوجها لا لمغادرتها، وفجأة تتحوّل كل الجهات إلى قبلة ينبغي عليه أن يولي وجه اهتمامه إليها، فيرغب في أن يمسك بكل شيء بينما هو في حقيقة الأمر يضيع كل الأشياء، إنها مهمة مستحيلة، صعبة وعويصة، الحل فيها أن تمشي في دروبها المعرفية دون خطة للوصول، بلا هدف، خبط عشواء، فكل الطرق تؤدي إليها؛ إلى سوزان المتعددة.

سونتاج امرأة كثيفة الوجود، تختلف عن نفسها كمحاولة منها لتكون كل النساء. وأنت تحاول القراءة لها أو الكتابة عنها سيرافقك سؤال لا يخجل من تكرار نفسه، من أين أبدأ؟ من سونتاج الروائية أم المحللة السياسية أم الناقدة، ربما أبدأ من سوزان المخرجة أو الأم أو الزوجة أو المثلية والاحتمالات عديدة.

تعددها يزيد من تميزها واختلافها ويضعنا أمام مفكرة مشاربها متنوعة، مما جعلها تثير الكثير من الجدل وتُسيل لعب الفضول لاكتشافها كاملة، لا يخفى على أحد أنّ سوزان سونتاج كانت ومازالت من أكثر الناقداة المثريات للجدل في أمريكا، وقد بدأ العالم العربي يفتح على أعمالها من خلال بعض الترجمات. تحمل سونتاج ذات مُخبأة ومُرجأة تحتاج دوماً للتّقيب بُغية الكشف عن جوانبها الخفية، وعن تطلعاتها النقدية كونها ناقدة، لذلك ارتأينا في ورقتنا البحثية هذه تتبع مسارها الوجودي وربطه بتأملاتها النقدية في كل من الكتابة والقراءة والتصوير الفوتوغرافي، من أجل الوصول إلى نتائج تفسر طريقة اشتغالها نقدياً على بعض الروايات والأعمال الفنية.

كما لن نغفل أثر مرضها على حياتها وطريقة تفكيرها، كل ذلك وفق مقارنة تأويلية تفكيكية، تروم بلوغ التخوم في أعمالها، وتحلم بقراءات متعددة ومختلفة لأعمالها النقدية، قراءات تفجر العديد من الأسئلة والإشكالات، الهدف منها تفجير الآفاق وتعبيد الطرق لمن يريدون التعرف أكثر على ناقدة كثّفت نفسها بالمجاز والاستعارات كي تكون أكثر من ذات.

سنحاول هنا الإجابة عن عدة إشكالات من بينها: من تكون سونتاج؟ وما سر اختلافها؟ وكيف نظرت للقراءة والكتابة؟ وما آلياتها النقدية المعتمدة في دراساتها؟

وللإجابة عن هاته الإشكالات حتماً سنعود لكتبتها كمصدر لا غنى عنه، نذكر على سبيل المثال كتاب: المرض كاستعارة، حول الفوتوغراف، كما يسخر الوعي للجسد ويوميئها، إلى جانب كتاب: ضد التأويل ومقالات أخرى.

العودة لكتبتها محاولة منا لمنح سونتاج فرصة للحديث عن نفسها بنفسها، وتعرية ذاتها المضاعفة أمامنا، لعلنا

نمنحها حياة جديدة لطالما تمنّتها

## أولاً: سوزان سونتاج، بورترية ذاتي:

ولدت سونتاج في 16 من يناير عام 1933، ناقدة وروائية ومخرجة تنحدر من أمريكا، وصل مجموع نتاجها الكتابي إلى 17 كتاباً، يتراوحون بين الرواية والدراسات النقدية والسيرة الذاتية والمسرحية. إنتاجها السخي هذا رافقه سخاء في الترجمة، حيث تُرجمت أعمالها إلى ما يزيد عن 32 لغة.

نتاجها الأدبي والسينمائي لم يمنعها من تعاطي السياسة، فقد كانت لها آراء سياسية وعَلّقت على العديد من المواقف السياسية، إيماناً منها بأنّ الأدب لا يعيش بمعزل عن الواقع، بل للأديب والناقد آراؤه الخاصة، ولا حرج في البوح بها.

سونتاج امرأة نحتتها الضغوطات المأساوية المعقدة (العزير، 2020)، فحياتها كانت عبارة عن تراجيديا، جعلت الخوف رفيقاً لها، فهي تهاب العالم وتراه مجرد فراغ إذ نجدها تقول: "العالم فراغ- متقوّض وممزق، البشر دمي مرتاعة، أنا خائفة" (سونتاج، 2016)، ولعل أهمّ من حوّل حياتها لمأساة إصابتها بالسرطان ومواجهتها له مراراً وتكراراً، فقد أصيبت به ثلاث

مرات حتى اعتاد جسدها الألم وبات مألوفاً بالنسبة لها، فالألم الذي لا يعقل حسب قولها يعود مرة أخرى وأخرى وأخرى (سونتاج، 2016)

مرضها خلق لها نوعاً من العزيمة فهي لم تقبل الحياة بتحفظ، بل عملت على الانتصار عليها، وارتأت بأن الكتابة سبيلها الوحيد لذلك ومنها كان إنتاجها الغزير.

عانت سونتاج في حياتها من مسألة الهوية الجنسية، فميلولها الجنسية متطرفة، اشتهت النساء على حساب الرجال واعترفت في مواضع عدة بكونها مثلية، بل ودخلت في علاقات عدة مع رجال ونساء على حد سواء، وهو ما ساهم أيضاً في تكوين شخصيتها الإشكالية. حيث لم تتردد يوماً في البحث عن أناها الضائعة، في التنقيب داخل جسدها عن هوية جنسية تعرضها للعامة دونما خجل، مما دفع بها إلى تحرير يومياتها، عبّرت فيها عن شهوات جسدها وتضاريسه، الجسد المعطوب على اعتبار ما سيكون.

في كل مرة تجد سوزان بياضاً في يومياتها تملؤه بسؤال الأنا وجنسها قائلة: "ما جنس (الأنا) ... من له الحق في أن يقول (أنا) أهذا الحق هو حق يجب أن يُكتسب؟" (سونتاج، 2016)، تصريحاتها الجنسية أوقعت ابنها في حرج وهو ينقح يومياتها بعد وفاتها ذات 28 من ديسمبر سنة 2004 بعد معاناة مع سرطان الدم، وجد ابنها نفسه مضطراً لنشر تلك اليوميات لأن والدته رغبت في ذلك، إلا أن حرجه من هوية والدته الجنسية جعلته يتردد في التصريح بها علناً، أو بأسماء الأشخاص الذين دخلت معهم في علاقة، فذكر البعض واكتفى بالترميز للبعض الآخر بحروف كي تبقى مجهولة.

هكذا جاءت يومياتها للنور لتفصح عن كل مكنونات سونتاج، أو على الأقل عن أغلب ما جال في خاطر مكان البوح لديها، مُشكلة بورترية فيسيفسائي عنها.

### ثانياً: سونتاج بين استعارة المرض واستعادة الجسد:

لا يمكن لكاتب الحديث عن المرض إلا إذا كان قد عانى منه وخبر جسده كل معاني الألم، فالألم لغة الجسد في التعبير عن ما يقع داخله من تغيرات تستجيب لتفاعل المرض مع الجسد وصراعه من أجل التغلب على الصحة. وسونتاج واحدة من الذين لم يسلم تكوينهم الفيزيولوجي من طفرات أردت به مريضاً، فارتأت الاستعانة باللغة لعلها تخفف عنها حدة الألم، حدة أنجبت لنا كتاباً مهما حملته عنوان: "المرض كاستعارة".

تري الناقدة الأمريكية المرض كجانب مظلم من الحياة، مواطنة مرهقة وشاقة، فكل شخص منا يولد في أرض الأصحاء لكنه ينتهي وطنياً لمملكة المرضى (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021)، وما إن يمرض أحداً حتى تحفه الكثير من الاتهامات والتلفيقات اللغوية، تضعه في قفص الاتهام لخيانته لأرض الأصحاء وعبوره لمملكة المرضى، لكانه هو من اختار أن يكون مريضاً يتلذذ بالألم. لذا ارتأت سوزان في كتابها سالف الذكر أن تتناول المرض من جانب مختلف ومغاير، فانزاحت عن الحديث عن المرض كمرض، واختارت الحديث عنه كاستعارة، لعل السبب في ذلك كون الاستعارة خروج من دائرة اللغة الصريحة الواضحة إلى المجاز؛ مجاز يجيز العبور من التعبير الحقيقي إلى المجازي المتغنى بالخيال، تماماً كالخروج من مساحة الصحة إلى حقول المرض. فالمجاز وبالتالي الاستعارة جواز سفر يبيح العبور، طفرة في جسد اللغة شأنه شأن المرض، الطفرة في بدن الأصحاء.

تبدأ سونتاج حديثها عن مرض السرطان، مرض تعايشت معه أكثر من مرة، فقد أصيبت به ثلاث مرات في حياتها، قاومتها كتابة بكل ما أوتيت من لغة، إلا أنه تغلب عليها في نهاية المطاف وكان سبباً في وفاتها، لكنه لم يكن يعلم بأن كتابتها عنه سيمنح لجسدها المعطوب حياة لغوية مختلفة، خالية من الألم، فهو لم يتغلب عليها بل على جسدها الضعيف، أما روحها فظلت تبعث مع كل قراءة لكتبتها ومقالاتها. شكّلت الكتابة عن المرض لدى سوزان نوعاً من المقاومة المغايرة المختلفة، فالكتابة عنه ترياق يجمع بين السم والعلاج.

إلى جانب السرطان تطرقت لمرض السل، واعتبرتاهما أحجية أو لغزاً، خاصة مرض السل مجهول الأسباب، الذي أحبط محاولات الأطباء في إسعاف مرضاهم، وهو ما جعلهم يعتقدون بأنه مآكر وسارق محترف للحياة، عنيد لا يمكن علاجه،

وبينما هم منشغلين بالبحث عن علاج له يدفع الموت بعيدا عن أجساد المرضى، جاءهم السرطان ودخل مملكة الأصحاء دون قرع للباب، غزى الأجساد في سرية تامة، دون رحمة أو شفقة، مما أربع النفوس وأثار الرهبة فيها، حد تحوُّله إلى أحجية، والاحتكاك بشخص يعاني منه خطيئة (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021) لا تغتفر وإثم مع سبق الإصرار والترصد، انتهاك للمحرمات، عيب ينبغي أن لا نبوح به، فمجرد نطق اسم أحد هذين المرضين – السل والسرطان- ستلغتك قوة سحرية وسيصبح موت المريض وشيكا. فالكلمة لوحدها كانت قاتلة، والمريض كان يستعير من مرضه ويمتعص ويستاء من وصمه بتسميات مرضية لعينة، ليس هذا فحسب بل إصابته تعني الموت المحتم (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021)، فيتحاشى الحديث عنه كي لا يعجل من موته.

تحاشي الحديث عن المرض يستدعي بالضرورة المواربة واتباع سياسة الالتباس من أجل تجنب أخبار الموت والمرضى، فالمريض يفضل العيش في وهم الصحة على حقيقة المرض، أن يتألم دون وعي، أن يموت بشكل مفاجئ دون ترقب مُسبق، يختفي دون سابق إنذار وبلا إجراءات مرعية كالعزل أو التقزز أو انحصار الحواس وتلخيصها في الألم اللامتناهي. رغم الصمت المطلق المحيط بمرض السل والسرطان إلا أنَّ المعاجم وهي تُعرف هذين المرضين وجدت نفسها تستخدم مفردات وكلمات أكثر قسوة من المرض في حد ذاته، كالتآكل والتلاشي والعروق المتضخمة، الورم والتورم، الشحوب، التشنج، الألم، الاستئصال، النحول والوهن ... وغيرها من الكلمات قاسية الوقع على مسامع ونفوس الناس.

فبحسب سونتاج لم تكمن الصعوبة في تعاطي الجسد مع المرض، بل في وقع الكلمات المصاحبة له على نفوس المرضى، إذ نجد بأنَّ المريض بحاجة لمرافقة نفسية أكثر من المرافقة الجسدية، فهو يتأكل روحيا، تُستأصل منه كل أسباب البهجة والفرح والاستمرار في الحياة، وتعوّض بالخوف والقلق والحزن، تجثو روحه داخله وتغادره مغادرة صغرى عندما يبحث عن طرق ليغيب عن وعيه، لعله ينسى ما ألمَّ به قبل أن تغادره الروح المغادرة الكبرى.

لعل ما دفع بسونتاج لتأليف كتابها هذا ولتناولها للاستعارة كمدخل للحديث عن المرض، ما هو إلا مواساة لغوية للمرضى، وتصويب لرؤية المجتمع للمرض كنقيصة أو ذنب يستدعي التقزز والنفور والابتعاد عن الشخص المصاب، إنه دعوة لنبد كل تلك المعتقدات القديمة واستبدالها بأفكار أكثر إنسانية. لم توجه سوزان الكتاب لعامة الناس أو المرضى على وجه الخصوص، بل وجهته لنفسها أول الأمر، كونها إحدى ضحايا المرض وأحاطت بها نفس الهالة اللغوية المحبطة الملتفة حول المرض.

حاولت أن تداوي روحها وتدفع رعيها بالكتابة، كنوع من المقاومة والتصدي للتوتر والقلق ومواجهة صريحة للمرض، وتحدي لشبح الموت. فالكلمة كأثر لا يمكن نكرانه، تعمل على دفع الموت بعيدا واستدعاء مستمر لشبح الكاتب، إنها نوع من الخلود والتخلي عن الجسد المعطوب واستبداله بلغة انسحبت من الجسم لحظة مغادرة الروح له، لتسكن نصوصا ستتكفل بمهمة تخليد صاحبها بعدم كشفها عن جميع أوراقها للمتلقي، مما يرغمه على استحضار شبح الكاتب؛ الاستحضار يعني حضورا متفوقا على سلطة الغياب.

الاستعارة اللغوية تقابلها استعارة أخرى ضمنية لم تفصح عنها سوزان والمتمثلة في استعارتها للغة كجسد يجنيها الألم الحقيقي، إلا أنها أي الاستعارة عطب لغوي يدفع باللغة للتخوم واللامحدود، تماما كما يفعل الألم مع الجسد عندما يدفع به لحدود اللانهاي (الموت)، تخوم الوجود والخط الفاصل بين الحضور والغياب.

تواصل سونتاج في كتابها هذا الحديث عن مرض المناعة المكتسبة، وكما نعلم جميعنا بأنه مرض يرتبط أيما ارتباط بالجنس، ونحن نعلم أيضا بأنَّ صاحبة الكتاب عانت من مشاكل جنسية عديدة، أولها المثلية، وتطرقها لمرض مماثل ما هو إلا تعبيراً آخر عن الجنس، تعبير ينطلق من المرض لا الصحة. وكما المثلية شذوذ أو خروج عن المؤلف، فالمرض أيضا شذوذ، نشاز في معزوفة الصحة.

تستهل سوزان حديثها عن هذا المرض بحديث عن الاستعارة، إذ نجدها تعود لمفهوم أرسطو لها كإعطاء الشيء اسما يخص شيئا آخر، وهو ما وُلد معظم أشكال الفهم والقدرة على التعبير، إنَّ الاستعارة كما تراها تعويذة ساحرة عن قوة إغراء اللغة البلاغية وإغوائها (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021)، إلا أنَّ قوة اللغة على الإغواء والتلاعب بمسميات الأشياء والإحالة

إلى مسميات أخرى، بقدر ما يُعين على الفهم أحيانا، بقدر ما يحجبه أحيانا أخرى، فهي تشوش الذهن وتسبب بينه وبين الوضوح تبنيًا للغموض.

من المسميات الاستعارية التي تناولتها سوزان، تسمية الجسد بالمعبد والمعمل والقلعة؛ وبالتالي ربطه بالمعمار، ومرضه دليل ضعفه وقرب سقوطه؛ إنّه عدو يغزو الجسد ويحاصره، جسد لطالما شيدناه بصحة نأكل ونشرب ونتنفس ونتمرن من أجلها، فالصحة عمل طويل ومنتظم، مهدّد في أية لحظة من اللحظات بقصف مدفع يُدمّر كل شيء، لم نتوقعه فهو يأتي بغتة ليصيب الأعضاء بهشاشة مزمنة، ولكي يسترجع الجسد توازنه وقوته وسلطته ما عليه إلا أن يخضع لعلاج أكثر قسوة كما هو الحال بالنسبة للعلاج الكيميائي.

يتغذى المرض كاستعارة من معجم الحرب والقتال، إنه تطلّع على الحقل العسكري، فالمرض مداهمة أو غزو أو قصف بينما العلاج قتال ومقاومة، وقد بدأت هذه الاستعارات المجازية العسكرية تبرز في بواكير القرن العشرين، في حملات تعاظمت خلال الحرب العالمية الأولى، بل حتى تعليمات الوقاية كانت تُكتب على السيوف (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021)، كي لا يكتفي الطبيب بشن الحرب على المرض بل يتدخل المجتمع برمته في ذلك، عن طريق نقل تعبيرات لغوية تزيد من حجم الفرغ والخوف وتثير زوبعة الهول.

الاستعارات العسكرية صورت المريض كمذنّب، وأصبح المصاب هو المرض في حد ذاته، ينبغي على السليم الابتعاد عنه وتجنبه، وبالتالي سيعيش حياة تحت الشّطب، وبدل مقاومته للعلّة يُقاوم منظور المجتمع إليه. فالمجتمع الذي كان ذاتا فاعلة فيه، بات بين ليلة وضحاها مجرد آخر منبوذ، متهم تحاكمه عدالة الصحة ويعاقبه جسده المعطوب.

وعلى ذكر الآخر فقد تطرقت صاحبة المرض كاستعارة إلى هذه النقطة بالذات، عندما اعتبرت المرض كآخر غريب أجنبي ودخيل، شيطنة تحوّل المريض إلى شيطان سمعته على المحك، ولكي تتجنّب تلك النعوت المقرّفة، قررت أن تكتب كتابها بعد إصابتها بالسرطان لتحوّل غضبها إلى قصة تغدو أملا للآخرين المصابين بالمرض نفسه، تطلعا منها بأن القصة ستكون أعمق من الفكرة، إنها نوع من المواساة، مما أوجب عليها كتابتها بسرعة فائقة، محفّزة ولا تخلو من الحماس والقلق عن الوقت الذي لم تستغله سلفا لكسب العيش السعيد أو الكتابة.

غرضها تهدئة الخيال وليس إثارته، لذا اشتغلت على الاستعارات المجازية اشتغالا عكسيا، يحول تأثيرها السلبي على المريض إلى تأثير إيجابي، فبدل الإيمان بالخرافات القاتلة، عملت على قتل تلك الخرافات، ليتحول مرض خطير كالسرطان إلى مجرد مرض لا لعنة ولا عقابا ولا إخراجا ولا إرباكا، واقترحت العلاج بالصدمة؛ أي استشارة الطبيب وجعله يبوح بالحقيقة كما هي دون تزييف (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021).

إذن نحن أمام ثنائية الحقيقة والمجاز المفروضة علينا من قبل ثنائية أخرى تتمثّل في ثنائية الصحة والمرض، فإن أردت أن تصح عليك بتقبل الحقيقة كما هي، وإن أردت تفاقم المرض فيمكنك اتباع ما تملّيه عليك المجازات والاستعارات من أكاذيب واتهامات تجعلك دوني، غير كاف لتكون فاعلا في المجتمع.

عملت سوزان بخلقها للثنائيات الضدية داخل كتابها دونما قصد، إلى إخراج المرض من قفص الاتهام، ليصبح بإمكاننا أن ننطق مفردة "سرطان" بحرية تامة، يصبح بواسطتها الطب مجالا علميا محضا يتجرد من الخرافات.

إلا أنها وهي تحاول إعطاء المرض نوعا من الحرية، ومسح حمرة الخجل من على وجهه، وجدت نفسها وجها لوجه مع مرض نقصان المناعة المكتسبة "الايدز" الذي لم تعتبره مرضا بل حالة طبية برزت نتائجها كطيف من الأمراض، وتعريفه يقتضي وجود أمراض أخرى تنعت بالأمراض الانتهازية المهلّكة؛ إذن نحن أمام مرض بصيغة الجمع، ينطوي على أمراض عدة لكن له سبب واحد (سونتاج، المرض كاستعارة، 2021) ارتبط هذا المرض باستعارة التلوث أو الدم والسوائل الجنسية، وعُرف بنفسه الطويل، فهو مرض يرافق الزمن ويجعل الجسد يتداعى تدريجيا، كتوبيخ نوعي للحياة.

يكشف الايدز الهوية الجنسية المخفية عن العائلة والمجتمع، وهو من عرى المنتمين إلى طائفة المثليين، التي لم تجد سوزان حرجا في الانتساب إليها وبالتالي كان المرض آلة من آلات كشف المخفي، تماما كالكتابة سبيل لكشف المسكوت عنه وتعريضه.

### ثالثا: تبشير العزلة أو الوجود تحت الشطب:

لعل تطرق سونتاج لمسألة المرض وما يحيط به من استعارات مجازية تتعلق بالنبذ والإنكار والإقصاء، هو ما أحالنا إلى الحديث عن ثنائية الذات والآخر، الصحة والمرض، الصوت والكتابة، الحياة والموت، ففي الثنائيات الضدية دائما هناك طرفا منبوذا ومقصيا؛ فلو تأملنا الثنائيات المذكورة سنجد بأن المرض والآخر والكتابة والموت كلهم وقعوا في المرتبة الثانية الثانوية، فمن الطبيعي أن يرتبطوا باستعارة كل معانيها مقززة تدعو للنفور. لذا اشتغلت سوزان على إعادة الاعتبار للطرف الثانوي عن طريق إعادتها لاعتبار المرض كحالة جسدية تنبع من الداخل لا الخارج، فالمرض ليس دخيلا إنما تعبيرا جسديا مختلفا، تلاحمه مع الجسد سيجعله جزءا لا يتجزأ منه، شأنه شأن الآخر الذي لا ينفصل بتاتا عن الذات، إنه وجهها في المرأة، انعكاسها في الوجود. أما الموت فما هو إلا ملمح من ملامح الحياة؛ حياة بعدية إحدى صورها المصغرة هي الكتابة، كبعث مستمر للميت؛ فالكتابة تنطوي في داخلها على معاني الموت والانسحاب، أولها موت المؤلف.

علاقة قوية ربطت بين الكتابة وسوزان، حيث عدت هذه الأخيرة الكتابة ولادة ثانية تخرجها من دائرة المرض وتمنحها حياة جديدة بعيدة عن كل تلك الاستعارات المجازية المزعجة، إلا أنها لم تكن تدرك بأنها تواجه مرضا عنيدا، يعيد احتلال الجسد من جديد، فرغم ولادتها مرة أخرى لم تسلم من السرطان الذي أعاد نفسه دونما خجل، مرغما إياها على استيطان مملكة السقم، لتغدو مواطنة وفيه فيها، يريد لها الجسد أن لا تنسى المرض، إنه طفرتها التي تولد معها وتبعث معها، ولكي يعاقبها على محاولة نسيانها وتجاوزها له فجّر حواسها ألما، ليغدو الألم توقيعا لإلحاح رابطة ما، إنه ذاكرة منقوشة في البدن نفسه مهما ظن المريض أنه قد نسي ظروف انبثاقه، يتغذى من حدث هام أو صادم فاض عن قدرات البلورة الرمزية لدى الشخص، وظل في ثنايا الجسد كشظية معنى تحت البشرة، تظل تثير الألم، وهو يعنى أطلال ألم قديم، ينعتفه فرويد بالتذكارات باعتباره الأثر الحي لحدث لا يزال فاعلا.

إن الاحتماء اللاواعي في ألم يُهدر الحياة هو مخرج لانفلات المرء من فصل من فصول حياته، أو من فترة تركت ندوبا لا تُمحي، إن الألم ممارسة بمثابة تعويض أو ملجأ طمأنينة للمريض، فالعذاب يتم تخديره بالألم يسحق الوجود كله ويغطي بحجاب ظروف غير محتملة من تاريخه الشخصي، فهو المورد الوحيد لمنح الصلابة لهوية منكسرة (لوبروطون، 2017)، وسوزان عانت من الانكسار، فقد كونت هويتها الضغوطات التي لم تقدر ولم تتمكن من سحقها، خلقت منها كاتبة تنجب نفسها مع كل نص تكتبه، ومع كل حياة يمنحها لها النص يعيد الألم نفسه، حتى تعبت منه ولم تعد قادرة على تحمله، إذ نجدها تقول في يومياتها: "سوف لا أقوى أكثر على تحمّل هذا الألم، أنا مجمدة مشلولة، تروسي معطلة، إنه سيتراجع، سيقبل لو استطعت بطريقة ما أن أحول العاطفة- مثلا- من الأسى إلى الغضب، من اليأس إلى الإذعان، يجب أن أصبح فعّالة، طالما استمرت باعتبار نفسي متأثرة لا فاعلة، فإنّ هذا الألم الذي لا يطاق سوف لن يعتقني" (سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، 2016). ظل الألم يكسرها في كل مرة، لذا جاءت حياتها الثانية عبارة عن شظايا كقطعة زجاج تعرضت للكسر؛ والمقصود هاهنا بالحياة الثانية حياتها داخل النص؛ أي كتاباتها، خاصة يومياتها، فقد كتبها بطريقة شذرية تذكر بالتمزقات الداخلية لجسد متعب، وبالهوية المنكسرة التي لطالما عملت على تناسيها.

فالألم قد أثر على طريقة كتابتها، ففي اليوميات نعث على جمل قصيرة وعبارة مختصرة، شذرات وشظايا ليوم متعب ولجسد مزقه الألم، فالكتابة كانت ولا زالت تماثل وتمثّل جسدها المعطوب.

صرّحت سونتاج في عدة مواضع بعد معاناتها وصراعاها مع المرض بأنها كانت تسابق الزمن، فالزمن بات عاملا مهما في كتاباتها، أرادت أن تقول كل شيء قبل أن تُسحب منها اللغة وتغادر الروح جسدها، لذا اختارت تدوين عبارات قصيرة كثيفة لعلها تسعفها على قول الكثير بالقليل.

قصر العبارات المكثفة دليل على تعب الكاتبة، لأننا نختصر عندما نتعب، وسوزان نال منها التعب وتواطأ معه الموت، الشبح المُهدّد لها باستمرار مع كل مرة يتداعى فيها جسدها وتفتر فيها هماتها، حيث تقول: "هل هذا التعب هو تواطؤ عفوي مع الموت، بداية للتحرّر في ما يعتبره المرء الوقت المناسب تقريبا، منتصف الطريق؟ ... ليت المرء يستطيع بتر جزء من وعيه" (سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، 2016)، تحضر ها هنا مفردة بتر وقد أخذت من المعجم الطبي، وهي استعارة مجازية قاسية كما أشارت إلى ذلك سوزان سلفا.

سوزان العاملة على محاربة الاستعارات المجازية العسكرية القاسية في كتابها "المرض كاستعارة" نجدها تستعير تلك العبارات في يومياتها كنوع من خيانة الذات، إلا أنّ البتر عندها تعلّق بالوعي لا الجسد، ولأن الوعي يرتبط بالفكر وبالتالي بالكتابة فقد جاءت يومياتها مبتورة، لا إطناب فيها، ضيقة، ذات نفس قصير، يذكرنا بالضيق الذي يُصاب به المريض لحظة إدراكه لمرضه، حيث يصبح ينظر للحياة بعين ضيقة تشمئز من كل شيء. هذا ما دفع بسونتاج إلى تحديد وجهة نظرها تجاه الكتابة، حيث عدّها بابا ضيقا، مجرد خيالات (سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، 2016)، والخيال هو السبيل الوحيد لعيش أكثر من حياة.

#### رابعا: الحدود القصوى للكتابة، من البتر إلى لانهاية التأويل:

استحضار مفردة البتر وإعادة استعمالها في مجال التأليف عن طريق الكتابة الشذرية، جعل ما كتبه سونتاج عن يومياتها مبتورا يحتاج إلى من يتمه، والبياضات المتخللة لعباراتها قصيرة الطول كثيفة المعنى لا يمكن أن يكملها أو يملأها إلا التأويل، كتفجير للدلالات وتوليد للمعاني؛ وبذلك تكون سونتاج قد قدّمت دعوة صريحة لقراءها من أجل استكمال ما تركته ناقصا، واستنطاق ما سكنت عنه، كضمانة بقاء بعد الفناء؛ فتأويل نصوصها يستدعي شبحها ويمنحها حياة جديدة، إنّها بمثابة ولادة ثالثة بعد الولادة الثانية المتمثلة في الكتابة. هكذا تكون سوزان قد ولدت ثلاث مرات، وفي كل مرة تظهر ذات خبائها عن أعين الجميع؛ من هنا نخلص إلى أنّ سونتاج لم تكن ذاتا بل ذواتا مخبأة تبحث عن من يبحث عنها.

لو اطلعت سونتاج عما كتبناه للتو، ستعلن حتما سخطها علينا، كيف لا وهي من كانت ضد التأويل، وقد تجسدت عدائيتها للتأويل في مقالها المعنون بـ "ضد التأويل". ترى صاحبة المرض كاستعارة التأويل مجرد استقراء دلالي يحوّل ما هو شعوري أو حسي إلى مبدأ محدّد أو مفهوم ثابت، يُخمد الفرضيات المتعددة للعمل الفني ويخضعه لقوالب صارمة ولمزاجية المتلقي (رزق، 2021) أو الناقد، وما قراءته للنصوص أو الأعمال الفنية إلا لحظة انفعالية تحول الفن والإبداع إلى مجاز خال من الحقيقة.

هنا تكون الناقدة المعادية للتأويل قد أخلطت أوراقها فربطت التأويل بالتفسير بل عدته مرادفا أو مفهوما له، لكن في حقيقة الأمر التأويل ليس مجرد قوالب جاهزة يبحث عن الواضح في النص، إنه لا يسعى البتة إلى إخصاء المعنى أو قمعه، بل هو تمديد لمدة صلاحية النص عن طريق تكثيف دلالاته، كي يبقى صالحا للاستهلاك أبدا.

قمعها للتأويل يمنحنا الحق في المطالبة بالبدل، وقد منحنا إياه عندما عرضت استبدال التأويل بالإروسية المتعلقة أساسا بالفن، وما تقصده بإروسية الفن هو الإعلاء من شأن الرؤية الحسية للعمل الفني، والاقتراب منه بوعي حسي عال وذهنية منفتحة غير دفاعية تجسد دلالات واحتمالات عديدة، وتحرر وجهات النظر من استبدادية التأويل ووطأة قيوده (سونتاج، 2019). من هنا نكتشف بأنّ سونتاج حاولت إبعاد الأعمال الفنية عن عقلانية التأويل، ومنحها وجودا حسيا، أرادت جعل الحواس تفكّر في النص بطريقة واقعية بعيدة عن مجازية التأويل المرتبط بمزاج القارئ.

وجهة نظر تشرح ما جاء سابقا في هذه الدراسة، فسوزان لطالما نظرت إلى المزاجية - خاصة في كتابها المرض كاستعارة- نظرة تحقير، لكونها تزيّف الحقيقة ودعت المريض إلى مواجهة الحقيقة عن طريق استشارة الطبيب ومطالبته بقول الحقيقة كما هي؛ وهو ما نعتته بالعلاج بالصدمة.

أسقطت رؤيتها للفن وطريقة قراءته على المرض واستعاراته، فالمريض خروج عن عادة ومألوف مملكة الأصحاء، والفن كذلك خروج عن الواقعي، وكلاهما لا يمكن إدراكهما إلا بالحواس، وحدها هذه الأخيرة من تمنح الأشياء وجودها الفعلي الواقعي، فبالألم نخبر المرض وبالإيروسية نقرأ الفن ونسبر أغواره؛ وعندما نقول الفن فالكثابة تدرج تحته أيضا، وتنطوي تحت جيبته.

حديثها عن الإيروسية يذكرنا بمواقفها وهويتها الجنسية، فالجنس كان هوسها ومشكلتها العويصة، وهو ما تنفك تردده في يومياتها، وبالتالي فكرها لم يكن بعيدا عن جسدها ورغباته وآلامه، لقد كانت تعيش بين ضفتي الألم واللذة، كلاهما يدفعان بالجسد إلى التخوم ويجعله يطل على الموت ويشارف عليه.

إذا كانت قد عايشَت تلك الأحاسيس بجسدها في حياتها الأولى، فقد عايشَتها في حياتها الثانية بعد ولادتها المضاعفة بالكثابة، حيث قالت عنها بأنّها: "الذهاب إلى الحدود القصوى" (سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، 2016)؛ الحدود القصوى من الحياة والمشاعر والأحاسيس فهي وسيلتها لعيش الحياة حد الموت، ولبلوغ اللذة حد الألم والعكس صحيح. وعلى ذكر اللذة وما يرافقها من مفردات كالشبق والشهوة والجنس، وجب الوقوف عند عبارة قالتها سوزان في يومياتها وهي: "لو أستطيع فقط أن أشعر إزاء الجنس كما أشعر إزاء الكثابة" (سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، 2016)، عبارة تنطوي على صيغة التمني ربطت فيها الكثابة بالجنس، ورأت في الكثابة تعويضا عن اللذة المفقودة في الجنس، فهي وإن لم تكن كافية جنسيا فإنها كافية كتابيا، لذا فالكثابة بالنسبة لها هدية ربانية عوضتها عن فشلها الجنسي في حياتها الأولى، تقول: "أجرب الكثابة كهبة أحيانا، تقريبا. أدعها تعج، أحاول أن لا أتعارض معها، أنا أحترمها، لأنها أنا وأكثر من أنا، إنها شخصية وفي الوقت ذاته فوق شخصية (سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، 2016). عوضتها الكثابة عن جسدها معطوب الصحة والحواس، لذا وصفتها بالهبة لأنها وهبتها ذاتا مغايرة وجسدا مختلفا يمكن أن يذهب بها إلى أفاصي الشبق وآفاق الشهوة، لقد استخدمتها الكثابة بشكل لائق تماما كما رغبت أن يستخدم الجنس جسدها، أباحت ذاتها لأن تُستخدم كنص قابل للتحليل والقراءة، مفتوح للنقاش وبيعت على اللذة.

رأت الناقدة الأمريكية المثيرة للجدل للعالم كجسد والكثابة كذات، الصلة بينهما هي الحواس والشعور بالحميمية، والألم - الوجه الآخر للذة - ناقل حسي يهب لكليهما توقا وجوديا، عذاب يُمكنهما من الوجود، إنه معادلة أليمة تشدهما بخيط الحياة. لكنها لم تكن تدرك بأنّ الكثابة وثيقة الصلة بالموت، أوله موت المؤلف، فهي ذات تكوين شبحي تقتضي الغياب من أجل الحضور، لكن لحظة إدراكها بذلك ولّت وجهها للصورة لعلها تقبض على الزمن بدل الدخول معه في سباق، وعلى الجسد المنسي المتروك على عتبات حياتها الأولى، إنّ حديثها عن الصورة وتطرقها إليها محاولة للقبض على الجسد في الماضي والدفع به إلى المستقبل، محاولة أخيرة لتخليد الجسد والكيد بالزمن المنفلت، لعله يقع فريسة للأبدية.

#### خامسا: الصورة؛ اللغة المرئية والحواس الضائعة:

جاء اهتمام سونتاج بالصورة كانتقام من الحياة وقساوتها، وأنت تشاهد الجسد المتمركز داخل إطار الصورة، ستراه مفرغا من كل ألم، معافي من كل مرض، فارا من الموت وليس حيا في الوقت نفسه، لكنه قادر على التلاعب بأحاسيسك ومشاعرك، يعيد إليك الماضي بحواسه، يجعل عقارب الساعة تدور عكس الاتجاه المعتاد لتعيش في زمن غير زمنك، وترى الزمن السائل قد بات صلبا متحجرا ثابتا، واللحظة الهاربة قد تم القبض عليها.

تؤكد سوزان على ضرورة التعامل بحنية مع الصور، نظرا لكونها كائنات هشة قابلة للتمزيق، ربما لأنّها تخشى على الجسد المدسوس فيها من الألم، فهي لا ترغب في تسريبه إلى حياة مثالية مجردة من مكر الزمن.

إنها؛ أي الصورة يومية مرئية وترجمة للعالم، تبعث على الحنين، لكن أليس الحنين أنين الزمن المنفلت واللحظات الهاربة؟ ألا يولد الحزن والرغبة في العودة إلى الماضي، في امتلاك ما فقدناه سابقاً، في تجديد حياة بالية، بعث وانبعث مختلف، ولادة من رحم العين التي ترى، بصيرة منقطعة النظير، وإعادة لاستهلاك ما تم تجفيفه في مخازن الحياة.

ألم تكن تعلم سوزان بأن الحنين أقوى من الألم، لأنه متعلق بالمستحيل، ولا آفاق له في المستقبل. ألم تكن تدرك بأنه يجعل الروح تتأكل بدل الجسد، لماذا قدر هذه المرأة التداعي؛ التداعي الحر في يومياتها، وتداعي جسدها المريض، وتداعي روحها المصابة بالشوق لما لا يمكن استرجاعه.

قدرها ثلاثي الأبعاد (ألم، لذة، حنين) يماثل ولاداتها الثلاث؛ في الحياة والكتابة والصورة. حاولت إخفاء ذاتها والاختباء من الموت في كل واحدة منهم، لكنه أدركها وسلّمت روحها إليه، إلا أنها قبل أن تغادر أرادت إخبار ابنها بوصية أخيرة لكن الزمن لم يسعفها للبوح بها، فبقيت كلماتها الأخيرة مدسوسة في جوفها، مدفونة مع جسدها المتأكل، مهمتنا استقرار واستنطاق ما لم تقله.

قبل أن تغادر أيضاً تركت زاداً معرفياً يتحدث عنها، وصوراً تحفظ ملامحها من التآلف وشعرها من التقصّف. بما أننا نتحدث عن الصور فمن الواجب الحديث عن صورها هي، حيث تظهر بجسد نحيف وخصلة شعر بيضاء تعترض سواد شعرها، أصرت على عدم صبغها، لأنها عنوان اختلافها ومنطق تفرداها الفيزيولوجي، تركت البياض يعاقر السواد كما عاقرت في حياتها الموت، واختلطت في أعماقها الذات بالآخر، فمثليتها تدل على أنها ذات وآخر في الوقت نفسه؛ ذكر وأنثى.

لم تكن الخصلة البيضاء البادية في صورها تدل على ما سبق فقط، بل عبّرت أيضاً عن رغبة سونتاج في المزج بين الماضي المتمثل في الشعر الأسود والمستقبل المختصر في شيب رأسها؛ وأنت تتأمل صورها، ترى صورة من الماضي لكنها تقبض على المستقبل أيضاً، شباب وشيب؛ تناقض يحول صورها العادية إلى فن، يستدرج حواس الناظر ويجعله لا يهاب الشيب بل يقيس به مقدار وجوده.

#### خاتمة:

الحديث عن سوزان سونتاج ليس بالأمر الهين، ولا يمكن أن يصل بنا إلى عتبات النهاية أو الختام، فكلما ظننت نفسك قد أنهيت تجد نفسك تبدأ من جديد، وما ختامنا هذا إلا محاولة لالتقاط الأنفاس وترك المجال مفتوحاً أمام الباحثين، من أجل التوغل أكثر فيما كتبت هذه المرأة المشكلة.

سوزان ذوات مخبأة أنجبت نفسها أكثر من مرة، أرادت أن تكون أكثر من ذات، أو ربما أكثر من مجرد ذات، لعلها تغدو فناً يفجر الحواس ويفك قيود القراءة العقلانية، الصارمة النهائية، وكأنها تقول لقارئها أرجوك لا تتوقف عن القراءة لي، غيب عقلك كي لا تراني بوضوح، كي لا تكشف أسراري وتعتبرني لغزاً محيراً، تحفر فيه بأداة استفهام لا تكشف عن الجواب بل عن المزيد من الأسئلة.

لم تختلف قراءاتها النقدية عنها لقد كانت تعكسها، إنها صورة عنها وعن مكنوناتها، فقد عرفت جيداً كيف تحوّل جسدها إلى آلة نقدية تتناول بها مختلف النصوص والفنون، مانحة للحواس عقلاً وللفن شهوة وللقراءة حدوداً لانهائية.

#### الإحالات والمراجع:

1. ممدوح رزق (16 أكتوبر 2021) التأويل، سوزان سونتاج، أراجيك، <https://www.arageek.com>، ص01
2. دافيد لوبروطون، تجربة الألم، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر (المغرب، ط1، 2017)، ص100.99.
3. سوزان سونتاج (21 فبراير 2019، 00.33)، ضد التأويل، الاتحاد، [www.aletiyah.ae](http://www.aletiyah.ae)، ص01
4. سناء عبد العزيز (الجمعة 05 يونيو 2020، 13.20) سوزان سونتاج من من ابنة ضاحية إلى رمز أمريكا في القرن العشرين، موقع عربية، [www.independentarabia.com](http://www.independentarabia.com)، 13.20.
5. سوزان سونتاج، كما يسخر الوعي للجسد، تر: عباس المفرجي، دار المدى (لبنان، ط1، 2016)، ص20.25، 75، 33.
6. سوزان سونتاج، المرض كاستعارة، تر: حسين الشوفي، دار المدى (لبنان، ط1، 2021)، ص09، 10، 110، 99.